تدبر القرآن

الخطبة الأولى

أيها المؤمنون! اتقوا الله تبارك وتعالى واشكروه على أن هداكم للإسلام، وجعلكم من أمة القرآن ، هذا القرآن المعجزة الباهرة، والآية الظاهرة، كتاب الهدى ، وإمام الخير والحق والفضيلة، ومنهاج العدل والأمان في كل زمان ومكان: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢].

إخوة الإيمان: أخبرنا الحق تبارك وتعالى بالحكمة العظمى من إنزاله القرآن ؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ (ص: ٢٩)، في هذه الآية بيَّن الله تعالى أن الغرض الأساس من إنزال القرآن هو التدبر والتذكر لا مجرد التلاوة على عظم أجرها ، ومن ثم يكون العمل ، قال الحسن البصري: والله! ما تَدَبُّرُه بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ما يُرى له القرآنُ في خُلُق ولا عمل .

وأنكر المولى سبحانه وتعالى على الذين أعرضوا عن كتابه، فلا يتعظون ولا يتدبرون، فقال:﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[محمد:٢٤]. وأخبرنا سبحانه بأن القرآن لو نزل على جبلٍ لتصدع من خشيته سبحانه ؛ فقال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[الحشر:٢١] .

وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ (البقرة: ١٢١) ما هو حق تلاوته ؟ قال ابن مسعود ﷺ: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله ، وقال الشوكاني: يتلونه: يعملون بما فيه ، ولا يكون العمل به إلا بعد العلم والتدبر.

وقال الله تعالى: {وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا} (الفرقان: ٣٠) قال ابن كثير: وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وقال ابن القيم: هجر القرآن أنواع ... الرابع من هذه الأنواع : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد الله المتكلم به منه.

وقد كانت سنة رسول الله ﷺ كثرة وعظ الناس بهذا القرآن، بل كان عليه صلوات ربي وسلامه يخطب الناس به، كما أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم عن أم هشام بنت حارثة ﵂ ، قالت: [ما أخذت ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾[ق:١] إلا من فِيّ رسول الله ﷺكان يقرأ بها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس].

ولذا اعتنى بالقرآن صحابةُ الرسول ﷺ وتابِعوهم تلاوة وحفظاً وفهماً وتدبراً وعملاً وعلى ذلك سار سائر السلف ، ومع ضعف الأمة في عصورها المتأخرة تراجع الاهتمام بالقرآن وانحسر حتى اقتصر الأمر عند كثير من المسلمين على حفظه وتجويده وتلاوته فقط بلا تدبر ولا فهم لمعانيه ، وترتب على ضعف الاتعاظ به وتدبره وتحريك القلوب بآياته التقصير في العمل به .

عباد الله ، وليس المقصود الدعوة لترك حفظه وتلاوته وتجويده؛ ففي ذلك أجر كبير؛ لكن المراد عدم الغفلة عن تدارس آياته والتدبر عند تلاوتها ، فالمطلوب التوازن بين الحفظ والتلاوة والتجويد من جهة وبين الفهم والتدبر، ومن ثم العمل به من جهة أخرى كما كان عليه سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى.

وروى مسلم عن حذيفة ﵁ : أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة نافلة؛ فكان يقرأ مترسلاً؛ إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ. فهذا تطبيق نبوي عملي للتدبر ظهر أثره بالتسبيح والسؤال والتعوذ.

وأخرج الطبري في تفسيره عن ابن مسعود ﷺ قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن ، وهكذا كان منهج النبي ﷺ في تعليم الصحابة القرآن: تلازم العلم والمعنى والعمل؛ فلا علم جديد إلا بعد فهم السابق والعمل به .

وروى البخاري ومسلم ، عن عائشة ﷺ ، قالت : لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذِنُه بالصلاة ، فقال: ((مروا أبا بكر فليصل بالناس)) ، قالت: فقلت يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس (يعني من البكاء) فلو أمرت عمر ، فقال : ((مروا أبا بكر فليصل بالناس ...)) . وهذا الحديث مع إشارته لخلافة أبي بكر ، ففيه تأثر أبي بكر بالقرآن ، وإقرار النبي لذلك حتى في حق الإمام.

اللهم بارك لنا في القرآن العظيم ، وانفعنا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم .

الخطبة الثانية

ذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها ؛ ورزقوا العمل بالقرآن ، وإن آخر هذه الأمة يقرؤون القرآن، منهم الصبي والأعمى ولا يرزقون العمل به). وفي هذا المعنى قال ابن مسعود : إنَّا صَعُب علينا حفظ ألفاظ القرآن، وسهل علينا العمل به، وإن مَنْ بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به) .

وذكر ابن القيم عن الحسن البصري رحمه الله قال: (نزل القرآن ليُتَدَبَّر ويعمل به؛ فاتخذوا تلاوته عملاً) ، ثم علق ابن القيم فقال : (ليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده من تدبر القرآن وجمع الفكر على معاني آياته ؛ فإنها تُطلِعُ العبدَ على معالم الخير والشر بحذافيرها ، وعلى طُرُقَاتِهما وأسبابهما وثمراتهما ومآلِ أهلهما، وتَتُلُّ في يده مفاتيحَ

كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثَبِّتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتُريه صورةَ الدنيا والآخرةَ والجنةَ والنارَ في قلبه، وتُحضِره بين الأمم، وتُريه أيام الله فيهم، وتُبَصِّرُه مواقعَ العبر، وتُشهِدُه عدلَ الله وفضلَه ، وتُعرفه ذاتَه وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبُه وما يبغضه ، وصراطَه الموصلَ إليه وقواطيعَ الطريق وآفاته ، وتُعرِّفُه النفسَ وصفاتِها ، ومفسداتِ الأعمال ومصححاتِها، وتُعرِّفه طريقَ أهلِ الجنة وأهلِ النار ، وأعمالَهم وأحوالهم وسيماهم ، ومراتبَ أهل السعادة وأهلِ الشقاوة) ، إلى أن قال : (فتُشهِده الآخرةَ حتى كأنه فيها وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم ؛ فتريه الحقَ حقا والباطلَ باطلا ، وتُعطِيه فرقانا ونورا يُفرِّق به بين الهدى والضلال والغي والرشاد وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحا وبهجة وسرورا فيصير في شأن والناس في شأن آخر).

عباد الله ، علينا أن نجتهد في تدبر آيات كلام ربنا ؛ وفهم معانيها ؛ ولنقف معها ونحرك بها قلوبنا وأعمالنا ، لنسعد في الدنيا والآخرة.

اللهم اجعلنا من أهل القرآن .....